مشكلة الصراع بين الفصحى والعامية في الوطن العربي

لمحمد أديب السلاوي

أضحت قضية الصراع بين الفصحى والعامية في لغة الضاد مشكلة قائمة على رأس مشاكل الثقافة العربية المعاصرة ، كما أضحت تشغل بال رجال الفكر العرب ، حيث أصبحت منذ بداية النهضة الحديثة موضع نقاش حاد بين حملة الاقلام على اختلاف ميولاتهم واتجاهاتهم الفكرية . كما بدأت تتسلل الى معظم المؤتمرات العلمية والادبية العربية غير أن معظم الدراسات التي جادت بها قرائح البحاثين العرب في هذا الموضوع لحد الآن ، لم تتوصل الى موضع الداء ولم تخلص بعد الى حل نهائي يطوي ملف القضية فاغلب هذه الدراسات يدور في حلقة مفرغة متارجحة بين نصر الفصحى ، وذم العامية أو العكس .

فالمتتبع لقضية الفصحى والعامية في لغة الضاد لابد أن يلاحظ بوضوح أن هناك اليوم في العالم العربي فئتين من الكتاب والباحثين والأدباء يناقشان مشكلة الفصحى والعامية ، الأولى تصور خطر العامية ، وتقول انها السلاح الوحيد الذي تركه الاستعمار للقضاء على الوحدة العربية ، والثانية تهون كثيرا من قيمة الفصحى ، وتقول انها لغة قدسية تتنافى مع روح العصر الذى نعيش فيه ، وتبقى المشكلة هكذا بين الأخذ والرد ، والدفاع والتغريق واذا أردنا الرجوع الى تاريخ نشوء هذا المشكل ، فسنجد أن مولده يرجع الى تاريخ غير قريب ، حيث يشير اليه الاستاذ فرح أنطوان في الفقرات التالية : (1)

« وضع جناب المستر ويلمور القاضى الانجليزى في محكمة الاستيناف المختلطة كتابا انجليزيا في غاية الأهمية اقترح فيه على أبناء العربية أمرين :

الاول : أن يتخذوا الحروف الافرنجية لكتابة الكلام العربي بدلا من الحروف العربية ، وذلك لضبط اللفظ في الكلمات المتشابهة ، والثانى استعمال اللغة العامية في الكتابة بدلا من اللغة الفصحى ، وحجته في هذا الطلب : أن الرجل الافرنجي يصرف سنوات في درس اللغة العربية ثم هو لا يفهم اللغة التى يكتب بها كتابها اليوم ، ولا اللغة التى يتكلم بها قومها ، وفضلا عن ذلك فان الذين يفهمون لغة الكتابة اليوم من المصريين لا يتجاوزون (12) في المائة من السكان ، وأما باقى السكان وهو 88 بالمائة فانهم لا يتعلمون لغة الكتابة ، واذا وجب أن يتعلموها ليدرسوا بها اضطروا الى صرف عدة سنوات في ممارستها ، فهل من الواجب وضع هذه العقبات في طريق تعليمهم أو تسهيل هذا التعليم لهم لتلقينهم الدروس بلغتهم ؟ ويقول المستر ويلمور أن اللغة العامية لغة مستقلة عن اللغة العربية ، وقد جاء عليها وقت كانت فيه لغة بأصول وقواعد ، فاذا جمعت أصولها وقواعدها صارت لغة سهلة عمومية لجميع أفراد الامة خاصتها وعامتها .. »

ونفهم من كلام القاضي الانجليزى أن هناك صعوبة يلاقيها الاجنبي فى دراسة اللغة العربية .. ولا شك ان لاجل هذا بدأت المجامع اللغوية والعلمية العربية تهتم بالموضوع جديا وتخصص له حلقات في البحث .. ففي سنة 1947 ولاول مرة في تاريخ اللغة العربية ، أخذ المجمع اللغوي بالقاهرة يدرس اقتراح أحد الاعضاء الكتاب في موقف اللغة العامية من اللغة الفصحى .. بين فيه من وجهة نظر شخصية العوامل التى تؤدى الى ذلك ، وذكر كيف نشأت العامية العربية من فصحاها وما نالها من تغير في

---

(1) فرح انطوان حياته ادبه

الالفاظ وفي الاساليب ثم انتهى الي استخلاص الاحكام التالية :

1) ـ ان اكثر الالفاظ العامية عربية اصابها التحريف في النطق للتخفيف والتيسير .

2) ـ ان اسلوب العامية قد استقر على صورة نعودها الناس وهو يختلف عن الاسلوب العربى الصحيح .

3) ـ ان العامية لا تزال تتطور ، وهذا التطور ناشىء من حياة الناس ، فهي وليدة الحياة نفسها ، وفيها من المرونة ما في الكائن الحي .

4) ـ ان العامية ليست مسخا مجردا للفصحى وانما هي لغة قائمة بذاتها لها قواعدها وأصولها فاذا شذ عنها شاذ فكأنه خرج عن طريقة مقررة .

ثم بعد ذلك دعا الباحث الى التقريب بين اللغتين فألقى على المجلس الاسئلة التالية :

ـ كيف يمكن التغلب على الصعوبة الكبرى ، وهي الاعراب ، وعلى الاخص في أواخر الكلمات ؟..

ـ الا يجوز أن يقبل في الفصحى غير ما يصح في لغة قريش ؟

هل نجعل الاصل منع ما لم يستعمل في الفصحى من قبل أم نجعله اجازة كل استعمال ما دام قائما في الحياة ؟.

ـ ألا يمكن أن نتجرد من التعصب لاساليب القدماء في الكتابة والكلام اذا كانت لا تعبر حقا عن أحاسيسنا وتفكيرنا ؟

وقد ناقش المجمع بكل طواعية هذا الموضوع ، مناقشة طويلة ، ولا زال لحد الآن يناقش مواضيع أخرى مماثلة له ، الا أنه لم يأخذ فيه أي حكم لحد الآن ..

ومن هنا يتبين لنا أن قضية الازدواج اللغوي التي بدأت تفرض نفسها في كل الاتجاهات اللغوية العربية بأدبها (القصة ، والمسرح ، والشعر ، والرواية) ولغتها (مجامعها ، وهيئاتها العلمية) وهذه القضية ليست وليدة تطور في الفكر العربي المعاصر كما يدعي ذلك البعض ، أو وليدة ظرف ، على العربية فيه أن تنتشر في آفاق العالم كما يريد أن يزعم القاضي الانجليزي ، ولكنها وليدة الاستعمار الفكري الذي خلق مع الحملات الصليبية من جهة ، ومع قوة الغرب القاضية من جهة اخرى .

والدليل الكبير الذي يؤكد هذه الحقيقة هو هذه الموجات من الدراسات المغرضة التي يقوم بها بعض المستشرقين الاجانب لنصر العامية ، وخلق فرقة بين أبناء الوطن العربي الواحد ، في كيانهم الذي هو اللسان الموحد ، ولكي يجعلوا من قضية اللهجات مشكلة قائمة في الحياة الفكرية العربية المعاصرة يشغل بها حملة الاقلام العرب نفوسهم حتى لا ينصرفوا الى قضاياهم المهمة المتجسمة في التطور الفكري والثقافي للبلاد العربية النامية ، وفي مخلفات الاستعمار الفكري على الخصوص الذي ما زال جاثما على فكر الكثير من مثقفينا العرب عافاهم الله .

واننا أمام هذا لا يفوتنا أن نعترف لمختلقي هذه المشكلة بنجاحهم ، فقد أصبح الكثيرون ممن تقع على عاتقهم مسؤولية ارتقاء لغتهم يشغلون بالهم بهذه المشكلة، كما أصبح في نفس الوقت للعامية أنصار كثيرون منتشرون في الارض يبحثون في الاجيال بالدعوة .. ومن هؤلاء الدكتور انيس فريحة الذى صرح أن اللغة العامية أصلح وأبقى في ميدان الحياة ، وقد جاء في رسالة له للدكتور عمر فروخ هذا التصريح واضحا حيث يقول : (2)

يحسن بي أن أجمل في نقاط وجهة نظري في هذا الموضوع الخطير :

(1) اللغة العربية الفصحى لهجة من لهجات العرب العديدة ارتقت الى مصاف اللغات الادبية بفضل نزول القرآن الكريم بها ، فهي مدينة بالبقاء له ومن الطبيعي أن تحرص الامة الناشئة ، ان يكون لها لغة قومية معترف بها ، فصيغت أحكامها وضبطت قواعدها فوقفت في صرفها ونحوها في نقطة معينة من الزمان والمكان ، أما لغة الناس التى لم تخضع لقوانين الصرفيين والنحويين فقد سارت مسيرها المحتوم متجزئة الى لهجات لان اللغة مجرى لا يعرف الجمود .

2) ـ ولقد أبعدت الشقة بين الفصحى والعامية الى حد يبرر القول بأن العامية لغة قائمة بذاتها ، بصرفها ونحوها ومفرداتها وأساليبها ، ذلك لان تيسير الحياة للعامية كان شديدا وعنيفا ، فأصبح العرب من مزدوجي اللسان . وقد مر في هذا الطور قبلنا أمم عديدة ، ولا تزال الى يومنا هذا امم أخرى تعانى من ازدواجية اللغة ، ولكن

---

(2) راجع مجلة الحكمة عدد 8 (1955) .

الاتجاه هو نحو الاعتراف بلغة واحدة هي لغة الحياة ، قد نستطيع أن ننسج حول اللغة ، ولكن السياج لا يقف في وجه الذبابة : الحياة ، الحياة تطلب اليسر وتكـره العسـر « يسروا ولا تعسروا »

3) ـ الوضع اللغوي الامثل ان يكون لكل شعب لغة واحدة ، نحن نكره هذه الفوضى الضاربة في العالم العربي في لهجاته المتعددة المتباعدة وندعو الى لهجة توحد لساننا، وانى أرى تباشير هذه اللهجة في لغة المثقفين العامية التى ليست فصيحة معربة ولا اقليمية ، بل هي اللغة العربية المحلية المشتركة بين المثقف المصري والعراقي والسوري واللبناني وغيرهم من العرب الذيـن اذا ضمهـم مجلس تحدثوا فيه بلغة بعيدة عن الفصحى ومترفعة عن الاقليمية ، هذه اللغة تنتظر أديبا مبدعا وشاعرا خلاقا وقصاصا فنانا وصحفيا موهوبا لاسباغ صفة الاعتراف بهذه اللغة بفضل الفن والجمال في النتاج الادبى .

وجاء فى كتابه نحو عربيـة ميسـرة ، الفقرات التالية :

« ان اللغة اكثر من فونيهات ، وأكثر من كلمات ، وأكثر من تركيب ، اللغة حياة ، وهذه الحياة هي العنصر الانسانى ، ان الفصحى ليست لغة الكلام ، فلا يرجى منها أن تعبر عن الحياة ، بحلاوتها ، ومرارتهـا ، وفنونهـا ولينها كما تستطيعه العامية ، والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع أن تقول بالفصحى ما تقوله بالعاميـة ، واذا نقلته الى الفصحى أتى جافا قاسيا خلوا من العنصـر الانسانى اللطيف باللغة ، تصور على المسرح فلاحا يتكلم الفصحى أو سكيرا يتكلم الفصحى ، أو خادمة تخاطب سيدتها بالفصحى ، أو نجيب حنكس يقص أقاصيصه الزحلاوية البرازيلية بلغة الزمخشرى ، وسعيد فريحة في نكات يقصها بالفصحى أو المجلات المصرية تنقل كلام ابن البلد الى الفصحى ..

ثم يقول في بحث آخر في نفس الكتاب :

ان اللغة العامية لغة قائمة بذاتهـا تختلف عـن الفصحى في أصواتها وتركيبها ومفرداتها وتعبيراتها ، ويحق لنا أن نقول الآن ان للعرب لغتين فصحى معربة وهي اللغة الأدبية الرسميةالمعترف بها ، وعامية غير معترف بها ، وهي اذن في نظر الناس لغة رديئة أو انحطاط لغوي ولكن رغم هذا الزعم الخاطىء فانها ـ العامية ـ لغـة الحياة اليومية .. »

والاستاذ محمد تيمور هو أيضا خاض صـراع العامية والفصحى ، فخصص فصلا طويلا مـن كتابـه مشكلات اللغة العربية تحدث فيه عن العامية والفصحى ، وشرح نظريته قائلا : (3)

« هذه العامية أقدم من الفصحى عهدا ، وأعرق منها الى العروبة نسبا وفي مقدورنا لو أتيحت لنا كتابة العامية أن نقول بأننا نكتب العربية ولا مراء .

لقـد عاشت خصائص تلك العاميـة في العصـور العربية الاولى اذ كانت لهجات مختلف القبائل والعشائر جرت عليها طبائع النشوء والارتقاء ومرت بها أطـوار تنازع البقاء وعلى ترادف من الايام وبعون من عوامـل وملابسات ، الفينا هذه اللهجات المتخالفة ، تتجمع وتختمر، وتتخذ لها قالبا هو الذى سميناه الفصحى ، فكان هـذا القالب صفة مختارة ، وصورة مزكـاة ، ينطـوي على النقاوة من خصائص اللغة به نزل القرآن ، وفيـه صب الشاعر والناثر روائع البيان ..

ثم يقول الاستاذ تيمور في صفحات أخرى : (4)

« وان ساغ لكاتب متأنق أن يترفع عن مشاكلـه العامة فيما يتناقلون من هذه الكلمات والتعبيرات على فرط الحاجة اليها وان يتجيد من كلمات الفصحى كل شريف أو كل طريف فالكاتب الروائي أو القصصـي له شـأن غير هذا الشأن ، وهدف غير ذلك الهدف ، اذ هو أحوج ما يكون الى اصطناع كلمات وتعبيرات عامية في الوصف والتصوير ، وبخاصة في مساق الحوار ، فهي ذات دلالة تأثيرية خاصة في النداءات والأدعيـة والأجوبـة ، وفي الاعراب عن المشاعر والأحاسيس ، ولاسيما حين يدور الحوار بين مئات من الناس في المحيط الشعبى ، وحين تظهر شخصياتها على منصة المسرح في أزيائها البلدية وفي هيئاتها المتميزة لكي تتناقل الحديث .. »

من هذا ، من تبريرات تيمور ، وفريحـة يتبيـن للقارىء العادي أن هذه المحاولات لا ترمي الى هدف غير التشكيك في فعالية اللغة العربية ، وكفاءتها في مسايـرة

---

(3) مشكلات اللغة العربية ص 88

(4) ص 231 من نفس المصدر

العصر العلمي الحديث ، فالاول وصفها بلغة أدبية خالصة ، ومعنى هذا أنها لا تستطيع مسايرة البحوث الجديدة في العلوم الطبيعية والفضائية . والثاني رماها بالقصور ، وهذا في الحقيقة ما يثير الضحك ، فلا احد يتصور ان لغة عمرت قرونا طويلة ، وحملت حضارات على اكتافها للشرق والغرب لا تستطيع مسايرة عصر علمي لا يقل عنه عصر الحضارة الاندلسية متانة ، وقوة ، وعلما .

ولكن مع ذلك ، فان الحقيقة حين تواجهنا ، فلابد أن نقول ان هذا الموضوع وان لم يكن للاستعمار الغربي يد في انمائه ، واذكائه ، فمن الطبيعي ان يثار في هذه الظروف المرحلية التي تجتازها البلاد العربية اليوم ، وهي ظروف كما يعلم الجميع ، يجتاز فيها الانسان العربي امتحانا عسيرا يختار فيه الموقف الطبيعي لحياته (الشرق أو الغرب) .

واعتقد ـ بكل تواضع ـ أن الذين اختاروا العامية ونصروها ، قد اختاروا قبلا الغرب ، مجتمعه ، وروحه وتنصلوا في نفس الوقت للعربية ، لأمهم ، وليس من الغرابة أن نجد للوطن العربي عاقين .

فان ذكر أسماء الذين عالجوا هذه القضية سوف يملأ كتابا ضخما بل مجلدا ضخما ، ولا أريد ذلك لانهم كثر ، وحجتهم في صلاحية العامية هي أنها أقرب الى الحياة ، وأصدق للتعبير عن عفويتها .. ولكن ما من أحد من هؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم ، ونصوص كتابتهم ، ولا الذين لم نذكرهم تجاوز البحث النظرى السلبي الى تطبيق هذا القول .

وأعتقد أن الذين نصروا العامية ، هم أنفسهم لا يستطيعون الكتابة بها ، اذا استثنينا الأستاذ سعيد عقل الذي تجرأ وقدم ديوان (جلنار يبحث عن الجمال) بالعامية اللبنانية لم تجد أديبا آخر ..

والواقع أن البحث في هذه القضية يتجاوز بكثير نطاق اللغة : والصرف والنحو ، والحرف والبيان ، ويتجاوز النظريات السلبية ، ويدخل في نطاق أكثر قيمة وموضوعية . نطاق الفلسفة ، والمؤسف أن الذين يتناولون هذا الموضوع لا ينظرون فلسفيا الى أمر اللغة ، خاصة وانهم يتكلمون عن انقلاب جذرى لوضع اللغة ، ان البحث في هذا الموضوع فلسفى بالجوهر (5) ، وسنكون عاجزين عن أن نعدل الحياة بغير منطق الحياة ..

غير أن هذه الدعوة غير الخاضعة لمنطق الحياة لم تلق ـ كما يزعم (العاميون) ـ أي نجاح ، بل صادفت استنكارا شديدا من طرف المفكرين العرب الحرصين على التراث العربي ، وعلى الحضارة الانسانية التي حمل لواءها الاسلام قرونا طويلة ، ولقد وضحوا للرأي العام العربي في شهامة ورزانة ما يختبىء وراء هذه الدعوة من أخطار ومؤامرات شيطانية تريد القضاء على حصيلة علمية عمرها آلاف السنوات .

واذا أحسنا النية بهؤلاء (العاميين) ، وصدقنا بأنهم يريدون بالعالم العربي خيرا ، ويريدون للغته التقدم ، فكيف سنحلل عدم ادراكهم لحقيقة الاختلاف بين اللهجات العربية القائمة ، واستحالة التوفيق بينها ، وتوحيدها في لهجة واحدة خاضعة لمنطق النشوء والارتقاء ترضي مطالب الانسان العربي الحديث العلمية والادبية ، وتجعله قريبا الى العالم الغربي الذي هو مولد هذه الحضارة كما يقولون ؟.

اذا كانوا لم يدركوا هذه الحقيقة ، فلابد أن نحكم عليهم بالجهل ، والامية ، أو بدعاة التفرقة العربية .

ثم ان بعض هؤلاء اذا كانوا يجرؤون فيضعون أنفسهم في مقدمة من يطالب بالتقريب بين الفصحى والعامية ، فاننا نؤكد لهم مع الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد :

« بأن التقريب بين الفصحى والعامية ممكن ، وأنه يزداد امكانا في العصر الحاضر لان أسباب التشعب والتفريع كانت موفرة في العصور الماضية ، ولم تكن بجانبها أسباب للتوحيد والتقريب ، فتوافرت هذه الاسباب في العصر الحاضر بعد شيوع وسائل الاعلام »

كما نؤكد مع الأستاذ العقاد في أن هذا التقريب يجب أن يكون لعالم الفصحى :

« وأن يكون لتيسير فهم الفصحى لغير المتعلمين ، وأن يدخل من زاويته في الفصحى مفردات نافعة من ألفاظ

---

(5) مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الحادي عشر سنة 1959 ص 72

الحضارة يمكن اجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بغير تعديل ، أو ببعض التعديل » (6) .

فالحقيقة القائمة أمامنا اليوم ، وأكثر من أي وقت مضى ، هي أن باللغة العربية اليوم عجزا عن تأدية الاغراض العلمية ، وقد استرعى هذا السبب اهتمام أدباء العصر ، فبحثوه ، ودرسوه ، ولكن هذا السبب غير كاف لهجر لغة لها من الماضي ما تحسد عليه ، فاللغات الغربية ـ الفرنسية الانجليزية الالمانية ـ أصبحت هي أيضا عاجزة اليوم عن تأدية الاغراض العلمية المتلاحقة ، ثم ان العامية التي تشكل مجموعة لهجات اقليمية ، ليس لها أن تؤدى حتى الاغراض الأدبية بالنسبة لشعوب العالم العربى الحديثة الواعية ، لاسيما ثقافة العلوم التى لا تستغنى عن لغة خاصة المفروض فيها طول زمنها وامتداد مكانها وتعاقب أجيالها .

واذا كانت لغتنا العربية تحتاج الى بعض التعديل فليس معنى هذا ، أنها اصبحت كاللغة اللاتينية الميتة ، واضحى اللجوء الى العامية واجبا ، بل بالعكس .

« فاللهجة الشعبية بطبيعتها لهجة موقوتة متفرقة موكلة بمطالب المعيشة اليومية ، لا تيسر للعالم ان يكتب بها علومه ومعارفه ، وليس معقولا أن يتعلم الشعب كل شيء الا أداة الفهم والتفاهم ، ويبدو لنا أن التجربة العلمية خير محك لهذه الدعوة ، فمن استطاع أن يوحد بين العلم ولهجة السوق ، فقد يستطيع أن يحل هذه المشكلة على وجه قويم (7) »

واذا كان من المستحيل أن يوجد هذا العبقري الذي يستطيع ان يخلق المصطلحات العلمية من لهجة السوق والمعيشة ، فاترك الكلام في هذا الموضوع للدكتور طه حسين حيث يقول : (8)

« احب أن الفت نظر ادبائنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شيء خطير ما أرى أنهم قد فكروا فيه فاحسنوا التفكير

هو ان العالم العربى الآن ، وكثيرا من اهل العالم الشرقى كله يفهم العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح القوي بين أقطاره المتباعدة ، فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمعن كل قطر في لهجته ، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابر ، ويأتى يوم يحتاج فيه المصري الى أن يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين ، وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خير أن تكون للعالم العربى كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى ، يفهمها أهل مراكش ، كما يفهمها أهل العراق أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التى تأتلف منها ، وأن يترجمه بعضه عن بعض ، كما يترجم بعض الاروبيين عن بعض ؟ أما أنا فأؤثر وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المومنون بها ، وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون ....»

هذا كلام عميد الادب العربى ، ورجل فاضل فيلسوف حكيم ، يرى الامور من جذورها .. ويحكم على الأشياء من زاوية واقعها ..

واننا اذ نترك هذا الكلام دون أي تعليق فلأنه يحمل كل المعاني الواجب التعبير عنها في الانفصال الذي يعمل لاجله دعاة العامية .

— 2 —

ليس هناك من يزعم أن اللغة العامية تعاني عقما جوهريا في أداء المعاني الحضارية أو التعبير عن دقائق الفكر ، بل انها اذا عمرت مدة طويلة في ميدان التعبير الكلي تصير قادرة على خوض المعركة والوفاء بما يخالج الانسان من عواطف وأفكار ، ولكن هذه الحقيقة نجدها تشمل اللغة العربية الفصيحة من الآن بل ونجد هذه اللغة قادرة على أداء كثير من المعانى الخالدة التى لم ينل منها الزمن، والتي لن تتمكن العامية مدى الحياة من بلوغ مكانها. ثم لعلنا بشكوانا من الفصحى نحمل اللغات ذنبا يجب أن نحمله في الواقع الى تأخرنا في الميدان الثقافي والتربوي .. فاذا كانت الفصحى لا تتفق حقا مع الواقع الشعبى

---

(6) عباس محمود العقاد في المصدر السابق
(7) العدد الاول من مجلة الحصاد لسنة 1955

الذي ينبغي للادب أن يصوره ، كما ذكر ذلك أنصار العامية وهم كثيرون ، فان ذلك راجع الى الثقافة الشعبية المنحصرة في سجن ضيق لا نور فيه ، ولا هواء ..

ولنرجع الى الموضوع : .. ونسأل هل القضاء على الفصحى ، واستعمال العامية سيحل المشكلة ؟. ان المشكلة على ما يظهر ، وكما يطرحها أصحاب النظر والرأي أنصار العامية ، تكمن في كون الفصحى لا تفي بالغرض ، ولا يمكن لها أن تكون التعبير الصادق عن خوالج الفلاح والعامل والتاجر والانسان الذي هو خارج قاعة الدرس .

فأنيس فريحة مثلا ، لا يتصور كيف يمكن لكاتب أديب أن يخلق حوارا مسرحيا بين الفلاح والعامل بلغة عربية فصيحة ، وله الحق أن يتصور ذلك ، ولكن هل العامية ستحل المشكلة ؟

ولنفرض أن العامية ، واستعمالها ادبيا ، سيحل المشكلة فهل يمكنها أن تحل محل الفصحى علميا ؟ هل يسع قاموس العامية ، اذا كان لها قاموس ، مصطلحات قانونية وادارية وفيزيائية وكميائية وقضائية وذرية الخ ..؟ ان العامية حتى في الميدان الادبي لا يمكنها ان تحل محل العربية ، وهذا ما يمكن للزملاء أنصار العامية ان يشعروا به عند التطبيق .

ثم هل لا تتنازع .. مصر ولبنان والمغرب وتونس والجزائر حول أي عامية أصلح وأوفى وباية واحدة من العاميات يجب أن نكتب ؟ لابد لواحدة من أن تطغى في آخر الأمر على الأخريات، فتصبح بدورها لغة موحدة اذ التوحيد ضرورى في اللسان .. وألا يبقى النزاع من أجل البقاء وينشأ عن ذلك قطع الصلة بالماضى العربى المشترك وينتج عن ذلك أيضا تطور اللهجات الاقليمية الذى سيضعف الشعور بالوحدة والاتجاه والقومية مع أن تلك الوحدة لا تقتصر في الفكر العربي على كونها غاية بل أصبح على الانسان العربي اعتقادها اعتقادا مذهبيا .

ولنذهب الى أكثر من هذا وابعد منه لنرى المشكل من حيث الفلسفة يقول كمال يوسف الحاج : ان خطأ الذين يبشرون بالعامية ناتج عن أنهم يميزون – في الطبيعة لا في الدرجة – بين الفكر واللغة على أنهم يعتبرون اللغة وسيلة لا غاية ، أنهم ينظرون اليها كشكل خارجي فقط ، يمكن استبداله بشكل آخر ، على أنهم يقولون بأن اللغة غلاف للمعاني لا يربطه بمضمون الرسالة شيء من الداخل ، وما لنا الا أن نفتح كتاب أنيس فريحة (نحو عربية ميسرة لنقرأ ما ياتي : (9)

« كثيرا ما تثار قضية وجود فكر مجرد بدون لغة أو رموز ، وقد تثار القضية بشكل آخر : أليس الفكر واللغة وجهين ، أو مظهرين لعملية بسيكولوجية واحدة ؟ وأكثر ما تثار هذه القضية في حقول المنطق والفلسفة والبسيكولوجيا ، وللعلماء فيها آراء مختلفة وأحيانا متناقضة ومما يدعو الى هذا الخلاف والتناقض في الرأي ، حرص المشتغلين بحل هذه القضية على ايجاد جواب حاسم ، نعم هناك فكر مجرد بدون رموز ، أو ليس هناك فكر مجرد بدون رموز ، وظاهر الى وقتنا هذا ، ان المسألة لا تتحمل الجزم سلبا أو ايجابا ، فان كثيرا من الكلام لا يدخل في نطاق الفكر ، كما نفهم اللفظة بمدلولها العام ، فانني عندما أقول ، نمت الليلة نوما هادئا، فانني لا أعبر عن الفكر انما هو رد فعل بسيط لحالة جسمية شعرت بها ، فكان اللغة مولد كهربائى ضخم يمكن استخدامه لتحريك آلات ضخمة أو لتحريك ضرابة يرسخها الاختيار في العقل ، فعندما نقول الجملة التى لفظة تشبه (كبسولا) يتضمن فكرة أو صورة ذهنية جرس كهربائى صغير .

الواقع هو أن مفردات اللغة ترمز الى فكر ، كل استشهدت بها سالفا (نمت) فانها ترمز الى ما حدث أو فعل يعرفه الآخرون بالاختبار ، وليس من الضرورى أن نفسر النوم وعملية النوم ، وعندما نقول الليلة فانها تنقل الى السامع فكرة أو صورة معينة ، وكذلك عند قولنا « نوما هادئا » ، فمن هذه الجهة نجد أن جميع الفكر أو الصور الحسية والمعنوية مضمنة في مفردات اللغة ، ولكن هذا لا يعنى أنه لا يمكن أن يكون هناك فكر وصور وحقائق في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة ، أو ليست متلبسة برمز أي بصوت لغوي .. »

على الرغم من تصريح المؤلف بأن المسألة لم يبت فيها العلم، سلبا أو ايجابا (بطريقة جازمة) الى وقتنا الحاضر ، فقد اتخذ موقفا صريحا من القضية ، هو

---

(9) عن كتابه فلسفيات فصل في اللغة

التسليم بأن اللفظة كبسول تتضمن الفكرة دون أن تكون الفكرة هناك على زعمه ، فكرة مجردة عن اللغة ، ظاهر أن مثل هذا القول يعني أن اللغة وسيلة ، وما دامت اللغة وسيلة أي ما دامت اللفظة كبسولا ، فما الذي يمنع من أن نتصرف بالكبسول كما نشاء » (10) .

والقدماء أنفسهم استعملوا هذا الكبسول الذي عبر عنه كل من فريحة وكمال الحاج وتصرفوا في اللغة ، وخلقوا من ذلك ما يسمى بالادب العامي .. وهو الذي كان يعبر عن الأمازيج الشعبية والأساطير وغيرها .

واذا ما رجعنا الى الادب الشعبي هنا في المغرب مثلا ، وهو يعبر عنه جملة واحدة بالفلكلور ، فاننا نجده باصوله الفكرية ، واللغوية متاثر بالادب العربي الفصيح ، ولا ادلنا على ذلك من عروضه الشعري وموازينه الفصيحة ثم تعبيراته التي تكون غالبا مستمدة من المعاني الشعرية العربية .

ودليل آخر ، من هنا في المغرب ، وهو ذلك القاموس الذي جمعه الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الذي يضم آلاف الالفاظ العامية المغربية ذات الاصول العربية والتي هي الدليل الوحيد عن عدمية اللغة العامية ، لانها لا تعتبر الا فرعا بسيطا من اللغة العربية الفصيحة .

ومن المؤكد ان الادب العامي نشأ في كافة الاقطار العربية .. وكل قطر عربي اتخذ من هذا الادب اسلوبا خاصا للتعبير .. ولكن أحدا لم يخش على العربية الفصحى من هذا وذلك يرجع الى أسباب كثيرة :

1) أن العامية بالرغم أنها ارتقت الى درجة صارت فيها لغة الاسواق فانها لم تزد بعد على أن تكون وسيلة للتعبير الساذج والاحاسيس البدائية ، ولم يظهر فيها لحد الآن ، ومنذ نشوئها النوابغ الذين ظهروا باللغة العربية .

2) ان انصار العامية يقولون ان العربية صارت كاللغة اللاتينية ، ولذلك يجب هجرها الى ابنتها العامية ، الا أن الواقع يقر أن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلغ شيئا كما بلغ بين اللغات الاروبية الدارجة وبين اللاتينية من الفارق ، فما زال التفاهم ممكنا .. بل ان التفاهم زاد أكثر من أي وقت مضى بين المثقف بالعربية والغير المثقف بها .. وهذا دليل آخر يبطل هذه الدعوى المزيفة ..

وهذه الحقائق قد سجلها الذين يكتبون بالعامية انفسهم ، فناخذ مثلا حيا وهو أمير الزجل « رشيد نخلة » الذي يمتاز بفن الزجل وحلق باجوائه العالمية على القديم والحديث ، يقول هو نفسه في هذه الحقيقة ما ياتي :

« بقي شيء آخر أرى التبسط فيه ، اليوم ، لزاما علي ، وهو ما يقوم بالاذهان من الزجل بمثابة حرب على الفصحى ، فاستغفر الله ألف مرة !! ما كان الزجل في الاندلس أمس ولا في مصر ولبنان اليوم ليزج بنفسه هذه الزجة فنمى الزجل فخره ، كله في أن يرى وجهه في زاوية من مرآة الفصحى ، ويكون عليه شيء من روعتها ، وبناء من طلاوة الفاظها ، وحلاوة حواشيها ، ولباقة الاخذ بين خافيها وباديها ! والعربية حين يقال : (ان الشاعر الزجلي يخرج فكرته ، وهي بعد حامية طلقة كما تمخضت بها قريحته ..) فمحاسنها لا تعد وحسناتها الى صاحبها الا بالفصحى ، واذا كانت هذه حسنة الزجل ، فما ترى بقال في حسنات الفصحى الى الشاعر ، وعنده منها كفتا ميزان العرب ، البلاغة والفصاحة ، فالزجل اذن عيال على العربية ، ومن قديم الزمن الى اليوم ، فضلا عن كونها لسان الامة ، والزجل لسان طوائف منها يوم تترك فصاحتها بعض الحين ، وتقبل على عاميتها ! وانى ما اخترت العامية بدلا من الفصحى ، بل ارانى اقبل على العامية حين اترك الفصحى واقبل على الفصحى حين أقبل على العامية (11) .

وقد نعتبر هذا موقفا صريحا اتخذته العامية من الفصحى ومن الذين يريدون استبدالها بالعامية . ويمكن القول بعد هذا ، لا خوف على اللغة من هؤلاء اذا عملوا على محاربتهم للفصحى ، هي محاربة لناموس طبيعي صرف ، وهذا الناموس هو ضدهم على طول الخط كما يقولون في هذه القضية ..

ان الثنائية ناموس طبيعي تعترى كل الشعوب .. وان اللغة الفرنسية التي يتكلم بها الشعب الفرنسي غير الفرنسية التي يكتب بها جان بول سارتر أو كامو أو فاليرى .. واللغة الالمانية التي يتكلمها الالمان غير التي

---

(10) نفس المصدر
(11) راجع كتاب معنى رشيد نخلة

يكتب بها الالمان .. فالثنائية تعترى كل لغة في العالم ، هي احدى المعطيات البديهية في حياة الشعوب ، ولا تعد أمة من الامم في مستوى راق من الحضارة ، الا اذا نهضت بلغة القول والكتابة معا الى درجة راقية .. أي الى درجة الفصحى ..

اذن الذي يخصنا ، هو أن نبسط لغتنا الفصحى ، قليلا ، وبهذا سترتفع لغة عاميتنا الى الفصحى ، وتحل المشكلة من جذورها .

وقضية تبسيط العربية قد تناولها المكتب الدائم للتعريب التابع للجامعة العربية بالرباط ، ودعا لها بكل وسائله موجها الدعوة للاسهام فيها لكل الادباء والمفكرين العرب .

— 3 —

يبقى بعد هذا أن نبحث المشكلة من حيث القومية .. وهذا جانب من الجوانب التي لم يتطرق اليه الباحثون في المشكل من حيث هو .. كمشكل قائم الذات .

ان العالم العربى اليوم المختلف اللهجات يجرى وراء قيام وحدة قومية جديدة ، ويسعى وراء توحيد المناهج السياسية والتربوية والاجتماعية ، ويسعى للقضاء على المخلفات الاستعمارية القديمة والحديثة .. يسعى في سبيل الوحدة القومية عن طريق المؤتمرات والهيئات والبعثات والمجامع اللغوية والعالمية ، وغيرها .. والدعوة الى العامية هذه لاشك سيكون لها أثرها الفعال في شعوبية الاقطار العربية .. وفك هذا الرباط الوحدوى — الفصحى — التى منها تنطلق الدعوات للوحدة وللقومية ..

ان اللغة من العوامل الاساسية في بناء القوميات ، ولا أقصد باللغة صرفها ونحوها بل اللغة التى تنتقل بها تلك النظرة الفلسفية اللاواعية من السلف الى الخلف عبر الزمان الدائم، وهي حافظة التاريخ من الدمار والفناء. وهي التي تخزن كنوزه ، هذه اللغة هي منوام البناء القومي ولغة تاريخنا .. ولغة أطفالنا التى يتعلمونها في المدرسة ، والتى تنقلنا من السلف الى الخلف هي العربية .. فكيف يمكن لنا الاستغناء عنها أو استبدالها بالعامية ؟..

ان القومية ليست مجرد علاقة بين انسان وانسان آخر ، وليست عملا تركيبيا بشكل اعتباطى ، يمكن الاستغناء عنه متى شاء الخاطر ، بل انها جبرية حياتية تبتدىء مع الانسان في المهد وتنتهى معه في اللحد ..

فالذين ينادون بانقلاب جذرى .. باستعمال العامية محل الفصحى في الكتابة بغير النزول الى منطق الحياة الطبيعي ، ينظرون الى القضية .. كما ينظرون الى المسالة الحسابية .. العامية نتكلم بها .. يجب أن نكتب بها أيضا ، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء ان القومية أكثر بكثير من العملية الحسابية المفتعلة وأكثر من لغة نستملحها أو نستقبحها .. القومية اندفاع كلي والذى يربطنا بصفة تسلسلية وطبيعية بحاضرنا .. الى الباطن العضوي الذي يربطنا بالخارج الحياتى .. ان القومية هي هذا التاريخ الذي لا نشاهده في باطننا ، ولا أحد يستطيع نزعنا من العروبة . ثم بعد هذا نحن وتاريخنا بعد هذا هو العربية فنحن عرب أولا وأخيرا .. لسنا أحرارا في اختيار أمتنا » (12) ، قد نكون أحرارا أن نذود عنها .. وهذا نفسه عائد الى مقدار وعينا القومي .. ولكننا لسنا أحرارا في اختيار شعورنا القومى والتصرف به كما نشاء ونرضى أو كما تشاء ارادتنا الفردية ، فشعورنا القومي موجود معنا والذين يحيدون عنه لا شك أنهم شواذ .. والشواذ لا حكم عليهم .

وأقولها صراحة ان الذين حادوا عن الشعور القومى، والذين تصرفوا كما شاءت لهم خواطرهم في اختيار اللغة، هم مجموعة من الشواذ سوف يعودون الى رشدهم بعد حين ، بعد أن يعلموا أن اللغة العربية ملتصقة بالارض التي يعيشون عليها وبعد أن يتيقنوا أن التنكر لها هو تنكر لتاريخ أجدادهم وآبائهم اذ لا أحد يجرؤ على التنكر لموطنه ذلك التنكر الذي يتجلى في محاولة فصل اللغة عن القومية .. ومن رأي ذلك فانه خاطىء الى يوم الدين ..

ولكن لكي لا نظلم الفصحى هي أيضا .. ونتعدى على العامية من جهة اخرى وجب علينا أن نشير الى أن تبسيط اللغة العربية شيء حيوي ضروري به يمكن ضمان حياة الفصحى ، وحياة القومية .

على كتابنا استعمال المأنوس والمالوف من الالفاظ القريبة الى أذهان الطبقات الشعبية ، والابتعاد عن المهجور والنابي من الكلام الذي يحتاج فيه السامع أو القارىء الى كتاب العين لخليل .. ولسان العرب لابن منظور ، والصحاح للجوهري .. وفي التبسيط ، أحسن الحلول لهذه القضية ، لان فيه ارتقاء العامية وتسهيل الفصحى .

الرباط — محمد اديب السلاوى
رئيس مصلحة النشر والاعلام
بالمكتب الدائم للتعريب

(12) كمال يوسف الحاج في القومية والانسانية